المحاضرة السادسة: علاقة الشعر المعاصر بمجمل الأنساق الثقافية

إنّ الإقبال على دراسة الشعر المعاصر لا يخلو من مراعاة لخلفياته المعرفية والثقافية، لما لها من دور في تحديد هوية النصوص وانتماءاتها التي نشأت فيها، فوسمتها وفقا لهذا المنظور بميسم التفرد عمّا سواها من النصوص، حتى إن الفوارق بينها تتلخص في صيغ تشكيلها وطرائق بنائها وطبيعة أساليبها؛ تلك التي يبدعها الكاتب ويصبغ عليها صبغته الخاصة، في سياق دال مفهومًا على ما انتظم من القرائن الدالة على المقصود من الخطاب سواء أكانت القرائن مقالية أم حالية [1]، وما يحتويه نظم الكلام من إفادات وأدوات. وتطور الأجناس الأدبية في ظل تلك الخلفيات هو انعكاس لصورة الانفتاح المعرفي في القرن العشرين، وامتداد للتلاقح المعرفي بين الشرق والغرب الذي ميّز القرن التاسع عشر.

والشعر المعاصر يمثل نسقا له امتداده في منظومة ثقافية أكبر تمدّه بهويته؛ بما له من مقومات التأثير القائم على تراكمات معرفية ممتدة على مدار الزمن، والنسق الثقافي في معنى من معانيه "مواضعة اجتماعية دينية أخلاقية استيقية تفرضها في لحظة معينة من تطورها"[2]، وهو ما يعني أن النص الأدبي نفسه نص منفتح على مجالات معرفية أخرى منصهرة في بنيته، يظل الاحتفاء فيها بالنص السير ذاتي سعيا لإثبات أحقيته في إثراء حقل الثقافة العربية في العصر الحديث.

وعلى هذا، قدّم دارسون أمثال فان ديك (V.dijk)مقاربة لتحديد نظرية للنص الأدبي، بناءً على أطروحات ترى الأدب ليس مجموعة نصوص فقط؛ إنه "الأدبية" في انتهاكها لقوانين العادة الناتجة عنه، بتحويل اللغة من كونها انعكاسا للعالم أو تعبيرا عنه أو موقفا منه إلى أن تكون هي نفسها عالما آخر، ربما بديلا عن ذلك العالم؛ فهي إذًا (سحر البيان) الذي أشار إليه الأثر النبوي الشريف، وما السّحر إلا تحويل للواقع وانتهاك له[3].

من هنا سعى "فان ديك" إلى تجاوز الحد السكوني لأدبية النص ذاته؛ فكان عمله منصبا على مقاربة أكثر دينامية للنصوص، بمنأى عن حدود انغلاق البنيات النصية

---

[1] ينظر: نجم الدين قادر كريم الزنكي: نظرية السياق، ط01، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2006، ص63.

[2] عبد الفتاح كيليطو: المقامات، السرد، والأنساق الثقافية، تر: عبد الكبير الشرقاوي، ط 01، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، 2001، ص08.

[3] ينظر: عبد الله الغذامي: الخطيئة والتكفير (من البنيوية إلى التشريحية)، ص28.

المشكلة لمستوياتها المكونة، انتقالا بها من المستوى التنظيري إلى مستوى الممارسة المستمد حراكه من فاعلية الواقع الثقافي وسياقاته التي تعني المواقف الفعلية التي توظف فيها الملفوظات، والمتضمنة بدورها ما يحتاجه المرء لفهم ما يقال وتقييمه[1].

والقراءة النقدية حينما تسائل النص الشعري تحديدا في ظل الفعل الثقافي فإنها تعترف ضمنيا بوجوده المتحقق في حواضنه الثقافية؛ التي تتفاعل عناصرها السياقية بما تضافر من حركية تطبع مجالها المعرفي المنتمية إليه، والنظر إلى هذه القراءة بمعزل عن الفعل الثقافي وتأثيراته لا يعدو أن يكون جهدا إجرائيا فاقدا لاستمراريته. فللسياق هو الذي يمنح الحياة للعلامات، ويتطلب إسهامات شركاء التواصل، ومبدأ الملاءمة وعليه فإن منزلة العلامات موقوفة على الشروط التداولية" [2].

والنسق بهذا "محكوم بمقصدية المرسل أو المنتج فردا أو جماعة أو أمة، وحينها يتحول النسق إلى مفاهيم تتجاوز الموجود إلى الماهية، والمعلن إلى الخفي، وهو بذلك إبداع وفكر وهو نتاج جديد مشكّل بمسوغات سابقة" [3] ترتبط فيها المرجعية الثقافية بتلك المؤثرات الهامة؛ التي أسهمت في تكوين المبدع الأخلاقي والروحي والفكري في مؤشر على دينامية النص الشعري، ومن ثمة انتفاء خاصية القراءة أحادية التوجه، وسعي بالمقابل إلى تحريك فعالية التوليد للدليل، حيث يبدو تعبيرا عن أصوات متعددة، وموضع تلاقح ثقافات ومواقف مختلفة[4].

لذا يتم التراسل بين المرجعيات "وفق ضروب كثيرة ومعقدة من التواصل والتفاعل، وليس المرجعيات وحدها هي التي تصوغ الخصائص النوعية للنصوص[...] وغالبا ما يدفعان كلاهما، المرجعيات والنصوص على حد سواء بتقاليد خاصة؛ هي في حقيقتها أبنية تترتب في أطرها العلاقات والأفكار السائدة"[5].

---

(1) ينظر: نواري سعودي: في تداولية الخطاب الأدبي- المبادئ والإجراء، ص29.

(2) أحمد يوسف: السيميائيات الواصفة، ط01، منشورات الاختلاف، الجزائر ، 2005، ص111.

(3) عمر بوقرورة: بناء النسق الفكري عند محمد البشير الإبراهيمي، د/ ط، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2004، ص28.

(4) Voir: Oswald Ducrot ,Tzvetan todorov ,dictionnaire encydopédique des sciences du langage,ed , seuil , Paris, 1979, p443.

(5) عبد الله إبراهيم: السردية العربية الحديثة، ص51.

إن هذه المرجعيات في ارتباطها بالعصر وما له من خصوصيات، بمعطياته البيئية وقيمه الموروثة وحصاد النوع الذي ينتمي إليه الإبداع وطبيعة النزعات والميول وقيم المبدع الذاتية، تمارس جميعها تأثيرات في الإنتاج الفني [1].

لكن التسليم بالمنابع الاجتماعية والثقافية للأدب لا يعني المساواة بينه وبين منبعه فقد يكون المنبع حافزا للأديب ومبعثا على إنتاجه، دون أن يعني ذاك بالضرورة أن طبيعة هذا الإنتاج من جنس المنبع نفسه، فقد تقف تلك السياقات عند حدود الحفز والتأثير ويتعذر الربط فيما بينها وبين العمل الأدبي في لحظة استوائه، فكثيرا ما شبّ هذا العمل عن طوق سياقاته الخاصة وعلا عليها[2].

وعليه تبدو النصوص بمظهرها اللغوي، ذات مرجعية معرفية لإمكانية التواصل اللغوي؛ فإذا كانت اللغة تمثل مجموعة من القوانين العرفية الاجتماعية بدءا من المستوى الصوتي وانتهاء بالمستوى الدلالي، فإن هذه القوانين تستمد قدراتها على القيام بوظيفتها من الإطار الثقافي الأوسع [3].

المصادر التمثيلية: يمكن التمثيل لفحوى المضمون النظري بالمصادر الآتية:

فدوى طوقان: وحدي مع الأيام
محمود درويش: يوميات الحزن العادي
محمود درويش: عابرون في كلام عابر
صلاح عبد الصبور، ديوان النّاس في بلادي

---

[1] ينظر: صلاح رزق: أدبية النص، دار غريب للنشر، القاهرة، مصر، 2002، ص181.

[2] ينظر: صالح هويدي: النقد الأدبي الحديث (قضاياه ومناهجه)، ص97.

[3] ينظر: نصر حامد أبو زيد: النص والسلطة والحقيقة(إرادة المعرفة وإرادة الهيمنة)، ط 04، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان/ الدار البيضاء، المغرب، 2000، ص98.